﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: 54 - 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

أغراض الأنبياء واحدةٌ، تتكامَل ولا تتخالف

لمَّا ذكر في الآيات السَّابقة إبراهيم ﷺ وهبةَ الله له بإسحاق ويعقوب، ذكر - هنا - إسماعيلَ ﷺ، وفصَلَ ذِكْره عن ذِكر أبيه وأخيه بقصّة موسى، لإبراز كمالِ الاعتناءِ بأمره بإيراده مستقلًّا[1]؛ لكونه الابنَ البِكْرَ لإبراهيم ﷺ، وشريكَه في بناء الكعبة[2]، وناسب أن يأتيَ به بعد موسى ﷺ لكونه موافقًا له في ظهور آيةِ الماء الذي به حياةُ كلّ شيء، وإن كانت آيةُ موسى ﷺ انقضت بانقضائه، وآيتُه هو باقية إلى أن يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومَن عليها[3]، ولكونِه جَدَّ خاتمِ الأنبياء ﷺ، الذي ينسخ اللّهُ به شريعة بني إسرائيلَ التي هي مِن موسى إليهم، وتُبشِّر بالنَّبيِّ العربيّ من ولد إسماعيل - عليهم جميعًا السّلام -.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: (كتب) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَمع شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، مِنْ ذَلكَ الكِتابُ والكِتابَةُ[4]، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، والكِتابُ: الفَرْضُ، قالَ تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ويُقالُ لِلْحُكْم: الكِتابُ، قالَ تَعالَى: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البيّنة: 3]، أَيْ: أَحْكامٌ مُسْتَقيمَةٌ، ويُقالُ لِلْقَدَرِ: الكِتابُ[5]، والكِتابُ: القُرْآنُ الكريم[6].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 129.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 213.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (كتب).
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 496.

2) ﴿صَادِقَ﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمّيَ به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له[1]، وصَدَّقه: قَبِل قولَه، وصَدَقَه الحَديثَ: أَنبأَه بالصِّدْق، ويُقالُ: صَدَقْتُ القومَ، أَيْ: قُلْتُ لَهُم صِدْقًا، ورَجُلٌ صِدْقٌ، وامرأَةٌ صِدْقٌ، وُصِفا بِالمَصْدَرِ، وصِدِّقٌ: صادِقٌ، كَقَوْلِهم: شِعْرٌ شاعِرٌ، يُريدونَ المُبالَغَةَ والإشارةَ، والصِّدّيقُ: المُلازِمُ لِلصِّدْقِ[2]، والمقصودُ بالـ﴿صَادِقَ﴾ في الآية: المُبالِغُ بالصِّدْقِ والمَشْهورُ به، وبه اشْتَهَرَ إسماعيلُ، وتَرَكَهُ خُلُقًا في ذُرّيَتِه[3].

3) ﴿ٱلْوَعْدِ﴾: (وعد) أصلٌ يدُلُّ على تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُهُ أَعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ[4]، والوعْد: مَعْروف، وعدْتُ الرَّجُلَ أعِدُهُ وعْدًا حسنًا مِنْ مالٍ وغَيرِه، وفُلانٌ وفيُّ الوعْدِ والموعودِ[5]، والوعْدُ فيه حَقيقَةٌ لا مَحالَةَ[6]، والمقصودُ بالوعد في الآية: إِخْبارُ مُخْبِرٍ بِأَنَّهُ سَيَعْمَلُ عَمَلًا لِلْمُخْبَرِ، وأَعْظَمُ وعْدٍ صَدَقَهُ إسماعيلُ، وعْدُهُ إبْراهيمَ بِأَنْ يَجِدَهُ صابِرًا على الذَّبْحِ، فقالَ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]، وهو المُراد هنا.

4) ﴿مَرْضِيًّا﴾: (رضي) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ السُّخْطِ، تَقولُ: رَضِيَ يَرْضَى رِضًى، وهو راضٍ، ومَفْعولُهُ مَرْضِيٌّ عَنْهُ[7]، ورضيتُ الشَّيء وارْتَضَيْتُهُ فهو مَرْضِيٌّ، ومَرْضُوٌّ[8]، ورِضا العبدِ عن اللّه تعالى: أَلَّا يَكْرَه ما يجري به قضاؤه، ورِضا اللّه عنِ العَبد: هو أن يراه مُؤتمِرًا لأَمره، ومُنتهيًا عن نَهيه، والرِّضْوانُ: الرِّضا الكَثير[9]، والمراد هنا مِن رِضا اللّه عَنْ إسماعيل: إِنْعامُهُ عليه نِعَمًا كَثيرَةً؛ إِذْ بارَكَهُ وأَنْمَى نَسْلَهُ وجَعل أَشْرَفَ الأَنْبياءِ مِنْ ذُرّيَتِه، وجَعل الشَّريعَةَ العُظْمَى على لِسانِ رَسولٍ مِنْ ذُرّيَتِه[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صدق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وعد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 60.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رضي).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رضي).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 130.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المَرضيُّ عند الله هو الفائِزُ بأعلى الدَّرجات

واتْلُ - يا مُحمَّدُ - في القرآنِ على قَومِك خبرَ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام، أنَّ إسماعيلَ كان صادِقًا في وعودِه، مُبالغًا في إنجازها، فما وعد وعدًا معَ اللهِ أو مع النَّاس إلَّا وفَّى به، فكان لا يُخالف شيئًا ممَّا يُؤمَر به مِن طاعة ربِّه، وإذا وعدَ النَّاسَ بشيءٍ أنجز وعدَه، وناهيكَ مِنْ صدق وعدِه أنَّه وعدَ أباهُ أن يَصبِر على الذَّبح، فوفّى بذلك، قائلًا: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصَّافات: 102]، وكان رَسولًا ونبيًّا، رفيعَ القَدرِ، يوحي اللهُ إليه، وكان يأمر أهلَه وأقربَ النَّاس إليه بالحِرْص على أداء الصّلاة والزّكاة؛ حتى يكون هو وأهلُه قُدوةً لغيرهم في العمل الصَّالح، وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه، ارتضاه اللهُ تعالى، وجعله مِنَ الخواصِّ المقَرَّبينَ؛ لاجتهادِه فيما يُرضيه، فرضيَ ربُّه عنه، ورضيَ هو عن رَبِّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

ذِكْرُ عزائمِ الكبارِ ينفع ويهدي

جملة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ وما بعدها ممَّا هو مِن تمامها؛ معطوفة على جملة: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ [مريم: 51] وما بعدها ممَّا هو مِن تمامها؛ مِن عطفِ جملةٍ مِن الجملِ على جملةٍ مِن الجمل، جمعًا بينَ المذكورات المأمور بها مِن أحوال كِبارِ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهو من باب عطف القِصّة على القصّة، أو الواو للاستئناف النّحويّ[2]، للشّروع في كلامٍ أُنُفٍ جديد بعد تمامِ آنِفٍ سابق، والاستئناف يُبرز استقلاليّة الجملة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 562، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 116، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 496.
(2) صافي، الجدول: 16/ 314.

في العناية بمضمونها؛ إبرازًا لشأن إسماعيل ﷺ، وأنّه حقيقٌ بأنْ يُذكَر استقلالًا، ومعنى الاستئنافِ والعطفِ متقاربٌ، حيثُ إنَّ عطفَ القصَّةِ على القصَّة فيه معنى الاستئنافِ؛ لأنَّه يُشْرَعُ في معنًى جديدٍ كليٍّ معطوفٍ على معنًى كليٍّ سابق.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعولِ:

في مطلع الآية تقدَّم الجارُّ والمَجرور: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ على المفعول: ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾، وكان الأصلُ عكسَ التّرتيب؛ لكمال العناية والاهتمام بذِكْرِ إسماعيلَ ﷺ، مِن جهة أنَّ ذكرَه في الكتاب الذي هو القرآنُ أو هذه السورةُ له شأنٌ أيُّ شأنٍ، ففي التّقديم تشويقٌ للمُؤخَّرِ، وإعلامٌ بأنَّ له مزيدَ اختصاصٍ بهذا الكتابِ، وفَضْلَ شأنٍ فيه؛ ومِثْلُ هذا يقال في مِثْلِ هذا التّقديمِ والتّأخيرِ في السورة؛ كما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: 16]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [مريم: 41]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ [مريم: 51]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾، ووزانُ هذا التّرتيب: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ ونظائرِه، ووزانُ التّرتيبِ في مطلع السّورة: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 1 - 2]، فهو ذِكْرٌ فخْمٌ؛ لأنّه مُهِّدَ له بمضمون المُقَدَّم وبصفةِ تقديمه: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: 1] ؛ كما يُقَدَّمُ للتّلاوة النَّادرةِ، وللمُحاضرة الرَّائعة، وللخبرِ النَّادر، والحَدَثِ العظيم، وهكذا، ولله المثلُ الأعلى، وكلامُه صفته، فله المثلُ الأعلى، وإن كان قولُه: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: 1] ليس له معنًى متّفقٌ عليه تؤدّي إليه ضوابطُ فهم المعنى وتحصيلِ مرادِه ومقصوده، غيرَ أنّ الإبهام الذي يكتسبه مِن كونه مِنَ المتشابه الذي لا يعلمه إلَّا الله، يُحقِّقُ التَّهيئةَ الفخمةَ والتّمهيدَ المُشَوِّقَ والمُثيرَ لقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2]، بل إنَّ تحقيقَ ذلك مع الحروف المُقطّعة أبلغُ وأقوى منه مع غيره، ممَّا لا يكون مِنَ الحروف المقطّعة، وإنّما يكون مِنَ المُحْكَم.

في التّقديم تشويقٌ للمُؤخَّرِ، وإعلامٌ بأنَّ له مزيدَ اختصاصٍ

علّة فصل جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾:

يرفع الله ذِكر العبد بالصّدق

فُصِلتْ جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾؛ لوقوعها تعليليّة لجملة الأمر بالذِّكر[1]: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾، أو لوقوعها استئنافًا بيانيًّا[2]، جوابًا لسؤالٍ مُقدّر عن عِلّة الأمر بذِكْره؛ فافتتاحها بحرف التأكيد أغنى عن العاطِف في الربْط والوصل، والأجوبةُ البيانيّة تُساقُ مفصولةً غير مقرونةٍ بالعاطف، وفيها معنى التّعليل لما قبلها، فكلُّ استئناف بيانيّ فيه معنى التّعليل لما قبلَه، وليس كلُّ تعليلٍ استئنافًا بيانيًّا.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة المؤكَّدة:

الأنبياء مطبوعون على المناقب الشّريفة

إيرادُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ جملةً اسميّةً مؤكّدة؛ لتحقيق مضمونِها، وتأكيد النِّسبة بينَ الاسم والخبر، فيفيد ثبوتَ نِسبة صدقِ الوعدِ لإسماعيل ﷺ على الدّوام، وهذه الجملة اكتنفها تأكيداتٌ: افتتاحها بـ (إنّ) وهي تأكيديّة أفادت الرّبط التّعليليّ مع ما قبلها على اعتبار الاستئناف البيانيّ، و﴿كَانَ﴾ التّحقيقيّة في ثبوت خبرها لاسمها، وكان يمكن أن يقال: (إنّه صادق الوعد)، فأُقحِم الكونُ الماضي لزيادة التّأكيد، إشارةً إلى قِدَمِه وعراقته في صدق الوعد، بما يَدُلُّ على نشأتِه النّبويّة مُذْ ميلاده، ويكأنّ الكون الماضي يُفيد أنّ صِدق الوعد ليس حادثًا في حياته، أو خصلةً جديدةً عليه، بل شيءٌ تَشَرّبَهُ مُنذ كان.

بلاغة إضافة ﴿صَادِقَ﴾ إلى ﴿ٱلْوَعْدِ﴾:

مَن صَدَق مع الله لا يَكذِبُ النَّاسَ

إضافةُ ﴿صَادِقَ﴾ إلى ﴿ٱلْوَعْدِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾؛ لتعيين مجالِ صِدقِه، فالإضافة للبيان، فإذا سأل سائلٌ: صَدَقَ في أيّ شيء؟ أُجيبَ بأنّه كان صادق الوعد، أي: صادقًا في وعْده، ولا

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 120.
(2) صافي، الجدول: 16/ 314.

يتأتَّى أن يكون مِن إضافةِ الصّفة إلى الموصوفِ؛ لأنّ الأسلوبَ لو فُكَّ، فقيل: (إنه كان وعدا صادقا): لَما صَحَّ معنًى.

سِرُّ إيثار صفة (صدق الوعد):

مَنِ اشتهر بشيءٍ نُعِت به

نُكْتَةُ تخصيصِ إسماعيل ﷺ بـ (صدق الوعد) دون غيره، لكمال اشتهاره به[1]، فمُدِح بما غلَب عليه، فغيرُه اشتُهر بأصلِ الصّفةِ، ولو كان المقصودُ إثباتَ أصلِها دون كمالها لَما كان مناطَ امتنانٍ ومدحٍ مِنَ الرّحمن؛ فقد صدقَ أباه وعدَه لمَّا قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصّافات: 102]، على أنّ (صِدق الوعد) يُفيد عمومَ المدح، لعموم الوصف في نفسِه، لا في متعلَّقِه مِن النَّاس؛ فإنّ صِدق الوعد وصفٌ جامِعٌ في الوفاء بكلّ ما ينبغي حِفظُه ومُراعاتُه، وصِدقُه مع أبيه ﷺ مِثالٌ على ذلك، وفي وصفِه بصدق الوعد نُكتَةٌ أخرى بديعة: وهي الإشارة إلى وِراثَتِه صِفةَ أبيه الخليل ﷺ، فهذا مِن ذاك، وقد وصف القرآنُ الخليل إبراهيمَ ﷺ فقال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النّجم: 37]، فكذلك إسماعيل: ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، وإنّما اصطفَى القرآنُ هذه الصّفةَ بالذّكر مِن صفاتٍ كثيرةٍ له؛ لأنّها أدَلُّ على كمال العبوديّة الألصقِ بالرّحمة الرّبانيّة، التي تسلَّطَتْ عليها في مطلع السّورة، والتي مِن آثارِها ما آلَ إليه حالُه.

نُكْتَةُ المَجيء بالمسند اسمَ فاعل:

مَنْ لَـزِم شيئًا انطبع فيه

مَجيءُ المُسنَد على بناء اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿صَادِقَ﴾، للدّلالةِ على رسوخه في الصّدق، وأنّه صار يَصدُقُ إلى الدّرجةِ التي انطبع فيها الصِّدقُ بذاتِه، فسُمّيَ به حتّى قيل له: ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، وبناءُ اسم الفاعل يدلُّ على الحدث والحُدوث والذّات، وعلى مُزاولة الوصف ولُزومِه لصاحبه في الماضي والحال والاستقبال، مع إفادة استمراره على صفة صدق الوعد مِن غير إخلال؛ فكيف إذا أُضيف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 129.

إلى الوعد؛ فدلّت الإضافةُ على لزوم الصّدقِ لجنس وعْده، وعدمِ انفكاكِه عنه؟

سرُّ التّعبير بالمصدر: ﴿ٱلۡوَعۡدِ﴾، ومعنى (أل) فيه:

الوعود مختبرات الرّجال

التّعبير بالمصدر في قوله: ﴿ٱلۡوَعۡدِ﴾؛ لأنّه أراد الحَدَثَ ذاتَه مُجرّدًا عنِ الزّمن، ولذلك أضاف إليه الصّدق، فحتّى تصِحّ الإضافة لا بُدّ أنْ يُؤْتَى بالاسم، فإنّ الإضافة لا تكون في الأفعال، ولِأنّ المصدر هو المعنى الثّابت الذي يقع عليه فِعل الفاعل بِصدقِه وإنجازه، فحينما يقول: ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، فالوعد هو المعنى الخالص الذي يُحْدِثه ويُخْرِجه الفاعلُ مِنَ العَدَم إلى الوجود، والأفعال والأوصاف المشتقّة كلّها متعدّية إليه[1]، والتّعريف في ﴿ٱلۡوَعۡدِ﴾ لاستغراق الجنس حقيقةً وأفرادًا، والاستغراق في الحقيقة حقيقي، وفي الأفراد عرفيّ، لأنّه صادِقٌ فيما يَعِدُ به فقط، وهذا يستغرق أفرادَ الوعودِ بحسبه هو، لا بحسبِ عمومها في المُطلَق.

بلاغة الوصل في قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾:

النّبوّة والرّسالةُ رأسُ المناقبِ

جملة: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ معطوفة على جملة: ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾[2] مِن باب عطف الخاصّ على العامّ، فإنّ ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ مدحٌ عامٌّ، و﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ مدحٌ بالوصفِ الخاصّ، ونُكْتَةُ الوصل: المغايرةُ بين ما هو له، وما هو للّه سبحانه في الأوصاف الواردة، فكونه ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ هو بِكسْبِه واختياره، وأمّا كونُه ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ فمَحْضُ اجتباءٍ وإفضالٍ مِنَ اللّه عليه، لا دخلَ له فيه.

وجملة: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ تثبيتٌ وتأكيد لجملة ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾؛ لأنّ اتّصافَه بالنّبوّة والرّسالة يَزيدُ في اتّصافه بصِدقِ الوعد، فيَدُلّ على كمال الوصف فيه، ويُمكِّنُ هذا المعنى ويُؤنِسُ به اقترانُهما

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 149.
(2) صافي، الجدول: 16/ 314.

في آية مستقلّةٍ؛ فذلك الاقتران مصباحٌ قرآنيّ يهدي إلى فهم أثر الثّاني في الأوّل، ولا يخفى ما بين الجملتين من الترّقّي في الأوصاف مِنَ الفاضل إلى الأفضل.

دلالة الواو في قوله ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ﴾:

خيرُ النَّاس مَن تعدّى خيرُه للنَّاس

جملة: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ معطوفة على جملة: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾؛ جمعًا بين وصْف النّبوّة والرّسالة، وقيامُه بتكاليفها مِنَ البلاغ وموعظة النَّاس مِن قومه الذين هم أهلُه، والمعطوفُ عليه وما قبلَه كان في تقرير تكميلِ نفسِه عليه السلام.

إيثار لفظ الأمر، دون غيره:

للرّجلِ إمرةٌ على أهلِ بيتِه في الدّين والدُّنيا

التّعبير بلفظ (الأمر) في قوله: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ إشارةٌ إلى أنّه يُبلِّغ ما كُلِّف به كما هو، فلمَّا كان التّكليف بالصّلاة على جهة الإلزام، وكان مأمورًا بإبلاغ هذا الإلزام، عُبِّر عنه بصيغة الإلزام بعبارة الأمر؛ ففي التعبيرِ به: إشارةٌ إلى وفائه لرَبِّه، فهو راجِعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى عظيم حرصِه على أن يُصَلّي أهلُه؛ بتنزيلِه منزلةَ مَن يُلْزِمُهم بالصّلاة.

نُكْتَةُ المَجيء بالمسنَد جملةً فعليّةً:

تكرار التّذكير ينفع ويهدي

المَجيء بالمُسْنَد جملةً فعليّةً في قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُ﴾ للدّلالة على مُزاولته للفعل كلّما جَدّ سببُه، وهو حضور الصّلاة، أو وجود مَن يترك الصّلاةَ فيأمرُه، ولذا عبّر بصيغة المضارع للدّلالة على التّكرار والاستمرار.

نُكْتَةُ اختصاصِ المفعول ﴿أَهۡلَهُۥ﴾:

الإحسانُ الدّينيّ أولى

خَصّ ﴿أَهۡلَهُۥ﴾ بالأمر بالصّلاة دونَ غيرِهم اشتغالًا بالأَهمّ، وهو أن يُقبِل الرّجلُ بالتّكميل على نفسه، وعلى مَنْ هو أقرب النَّاس إليه، على غِرار قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشّعراء: 214]، وقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: 132]، وقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ

نَارًا﴾ [التّحريم: 6]، وقصْدًا إلى تكميل الكُلِّ بتكميلهم، لأنّهم قدوةٌ يُؤْتَسى بهم؛ هذا على أنّ أهلَه خاصَّتُه فقط، وقيل: أهله أمّتُه، فإنّ الأنبياء ﷺ آباءُ الأمَم[1]، وأمّةُ العرب نشأتْ مِن ذُرّيته، فهم أهلُه بالمفهوم الواسع للقَرابةِ العامّة[2]، ويكون إطلاق الأهل على عموم القوم فيه إشارةٌ إلى كمال العناية بهم، بتحريضهم على الإيمان؛ ليكونوا أهلَه في الانتساب إلى دينِه، كما كانوا أهلَه لاشتراكهم معه في الانتساب إلى القوميّة والجنس.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾:

التّكاليف خطابٌ بالأفعال

الباء في قوله: ﴿يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ للتّعديَة، والكلام على حذف المضاف إيجازًا؛ لوضوحه، لأنّ التّكاليف لا تتوجّه إلى الذّوات بل للأفعال، فالتّقدير: (يأمر بإقامة الصّلاة)، أو (فِعل الصّلاة)، وتعدّي الأمر بالباء إلى ذات الصّلاة في الظّاهر: تنبيهٌ على عظيم حرصه على إقامتِها وفعلِها.

دلالة العطف بينَ الصّلاة والزّكاة، ومعنى (أل) فيهما:

خير العبادة ما نفَعتَ بها نفْسَك وغيرك

الاقتران بين الصّلاة والزّكاة مع إسناد فِعْل ﴿يَأۡمُرُ﴾ إليهما يوافقه قولُ الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: 132]، فإنّ النبيّ ﷺ مِن ذُرّيّة إسماعيل وعلى مِلّته، وهو متَّبِعٌ له في الشّعائر، وأغلبُ الشّعائر لها اقترانٌ بإسماعيل ﷺ، كما في الحَجّ والأُضحيَة وغيرِهما، وبرهانُ ذلك قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحجّ: 78]، وهذه التّسميَة إسماعيلُ شريكٌ فيها بدعائه في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، فلا غرابةَ أنْ تكون الصّلاة المأمور بها في قوله: ﴿يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ هي العبادة البدنيّة، كما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 130.

في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: 132]، وعليه: فالتّعريف في الصّلاة في: ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ للعهد، أي: الصّلاة المعهودة في شريعته، وتكون الزّكاةُ مذكورةً بعدَ الصلاةِ على أنّها تُعينُ على الكمالِ والإحسانِ في تحقيقِها وأدائها؛ لأنّ الانشغالَ بتحصيلِ الرّزق قد يُباعد بينَ العبد وبين ذلك، فهو يأمرهم بما يُكمِّلُهم غايةَ الكمالِ[1].

سِرُّ تكرارِ فعلِ الكون أربع مَرّات:

الأنبياءُ ملازِمون للخير، منفكّون عنِ السّوء أبدًا

ذُكِرَ فِعلُ الكون الماضي أربعَ مرّاتٍ في تعديد الثّناءاتِ على إسماعيلَ عليه السلام، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾؛ لتحقيق أنّ هذه الأوصاف كانت لازمةً له لزومَ الجِبلّة والطّبْع[2]، على حَدِّ الإبلاغ؛ لأنَّ كونَ الأوصاف كذلك يحصلُ بذكر الكون أوّلَ مرّةٍ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾؛ لأنّ ما بعدَه معطوف عليه؛ فهو في حيِّزِ الكون الأوّل، فكان ذِكْرُ الكون في الجُمَل الثّلاث على خِلافِ الظّاهر، فهو تكرار اصطلاحيّ؛ لأنّه في سياقٍ ومقامٍ واحدٍ؛ وهذا مِن تعظيم ذِكْرِ إسماعيلَ.

دلالة الواو:

منتهى سعي العبد أن يرضى اللهُ عنه

جملة: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ معطوفة على الثّناءاتِ قبلَها، وجُعلت هذه الجملةُ في نهاية مناقبه عليه السلام، لأنّ المَرضيّ عند الله هو الفائز في كلّ طاعاته بأعلى الدّرجات[3].

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجُملة على الخبر:

مَن وجد اللهَ فقد وصَل

تقديمُ شِبه الجملة على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾؛ لإفادة الاختصاص الدّالّ على التّشريف العظيم، ومضامينُ الكرامةِ والتّشريف مُقدَّمةٌ لا تتأخّر، وقد كَنَّى عن هذا

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 550.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 214.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 550.

التّكريم التّعبيرُ بالعِنديَّة، فإنّها في معنى الجائزةِ القريبة في صدارتِها والابتدارِ تعجيلًا بها، ولذا قُدِّمتْ، فضلًا عن أنّ العِنديّة لَمَّا أُسندتْ إلى ذي الجلال والعَظَمة لم تكن إلَّا لِتَتَقدَّم في النّظم زيادةً في العناية، لأنَّها رُتبةٌ لا تُسبَق، فلها التّقدّمُ المُطلَق لفظًا ومعنًى، كأنّه قيل: واستحقّ بهذه المناقب أن يُحرِزَ مقامًا خاصًّا عند الله، وإذا كان المَضمونُ الظاهرُ لهذه الجملةِ ثمرةَ الجمل الثّلاث قبلَها، فإنّ دلالاتِ هذا التّقديم مِن ثمراتِهنَّ أيضًا؛ مِن غاية التّشريف والتّكريم والتّقريب، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى، وفي التّقديم أيضًا تشويقٌ للمُؤخَّر؛ للتّنبيه على عظيمِ فضلِه؛ حتّى لا يُغْفَل عنه بهذه الصّفة إذا قُدِّمَ.

نكتة التعبير بالرُّبوبيَّة:

أُضيفت العِنديّة إلى الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذه العِنديّة مقامُ إحسانٍ وإفضالٍ واسع، فهي درجةٌ مثوبةٍ بالخير والبِرّ، وهي مِن ثمراتِ تحقيقِ مقامات الإيمان في الجُمَل الثّلاثِ الواردة قبل جملتها.

مـن اسـتـودع نفْسَه عند الله لم يَخِبْ

سِرُّ إيثار صيغة ﴿مَرْضِيًّا﴾:

جاء التّعبيرُ القرآني بصيغة اسم المفعول في قوله: ﴿مَرْضِيًّا﴾، أي: مَرضوٌّ عنه من ربّه سبحانه[1]، حتّى صار مطبوعًا بالرِّضا في داخلِه وخارِجه، وصيغةُ اسمِ المفعول تدلّ على الثّبوت والحُدوث والذّات، أي: ثبوت الوصفِ لذاتِ المفعول، وتجدّد حدوثه الزمنيّ له، فهو عريقٌ في رِضا الله عنه، وكلّما أحدث خصالًا مِن خصال العُبوديّة تجدّد له حدوثُ الرّضا، فيزداد منه بقدر ما زادَ هو في الخير، ولذا فالصّيغةُ تدلّ في الزّمن على تحقّق الصّفة واستمرارِها في المُضيّ والحال والاستقبال.

مَـن أرضى اللهَ أرضاه اللهُ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 7/ 608.

نُكْتَةُ تنكيرِ الخبر في قوله: ﴿مَرْضِيًّا﴾:

نُكِّرَ الخبرُ في قوله: ﴿مَرْضِيًّا﴾؛ للدّلالة على فخامة معناه؛ وتعظيمًا للموصوف به، وذلك مع اتصاله بالعِنديّة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصِّدق والوفاء:

الـصّـدق شـرطُ صحّةِ كلّ شأن

أصل (صَدَقَ) يدُلُّ على قوّةٍ في الشّيء قولًا وغيرَه، فالصّدقُ خِلاف الكَذِب، وقد سُمّي بذلك لقوّته في نفسه، ولأنّ الكذبَ لا قوّة له[1]، فالصِّدق يتعلّق بإيقاع الفِعلِ على وفْقِ حقيقةِ الشّيء في نفسِه، فإذا أُضيف للوعد كما في الآية، فمعناه إيقاع الموعود به على حذافيره وتفاصيلة، بما يتطابق مع حقيقته.

وأمَّا الوفاء: فأصله (وفَى)، ويدلُّ على إكمال الشّيء وإتمامه، ومنه: إتمامُ العهد بإكمال شرطه[2]، فكلٌّ مِنَ الصّدق والوفاء يشتركان في المآل بتحقيق الشّيء وإتمامه، إلَّا أنّ الصّدق يُلْمَحُ فيه التّأكيد على صِحّة القَصْد وحقيقةِ الباطن وقوّةِ العَزم، فيتعلّق بالمَبدأ ووضعِ الصّحّة، والوفاءُ يُلمَحُ في التّأكيد على تتميم الخطوات وتكميل أجزاء الشّيء، فيتعلّق بالمنتهى ووضعِ الكمال.

وقد قال تعالى: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، ولم يقل: (وافيَ الوعد)؛ ليدُلَّ على أنّه مُخلِصٌ في قَصْده، صحيحٌ في عزيمته إذا قطع وعْدًا، وهذا هو الأنسب لأنَّه أضافه للوعد، والوعد ترجيَةٌ بالإنجاز لا إنجاز[3]، فأضافَ الصّدقَ إليه لأنّ الصّدقَ مبدأ تَحَقُّقِ الأشياء، فهو قوّتُها المولِّدةُ لها في الواقع بالتّنجيز، بعد أنْ كانت وعدًا بالفِكْرةِ والكلمة، كما أنّ التّرجيَة بالإنجاز هي مبدأُ الإنجاز، فأخبر بما يناسِبُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).

الوعدَ عند تعاطيه والتّرجيَة به، وهو القَدْر المضمون الذي سيُسأل عنه كلُّ إنسانٍ وهو يقطع وعدًا، وأمَّا الوفاء فيتعلّق بالإنجاز المستقبليّ، وهو غير مضمونٍ حالَ الوعد، وغيرُ مسؤولٍ عنه في الحاضر.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»